هل افتقدنا بوصلتنا الروحانية؟

تعارض النزعة الاستهلاكية مع قِيمنا الإسلامية

منار آل محمود
طالبة، كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر

في عالم اليوم، أعادت وسائل التواصل الاجتماعي والثقافة الاستهلاكية تشكيل المجتمعات المسلمة على نحو يتحدى القِيم المتجذرة. فمفاهيم مثل التواضع والقناعة والزكاة، التي طالما كانت محورية في حياتنا اليومية، طغى عليها تتبع الصيحات، وتفضيل الراحة، ومطاردة المكاسب المادية. وما كان يهدف إلى تعزيز البساطة والعرفان صار عرضة الآن لتحل محله العدوانية والطمع والتبذير. وتُبرز هذه التوترات المتنامية الحاجة المُلِحَّة للتفكُّر في تسبُّب النزعة الاستهلاكية في إبعاد المسلمين عن التوازن الروحي الذي يدعوهم إليه الإسلام.

السباق اللانهائي وراء الموضات الجديدة

المجتمع المعاصر غارق في مطاردة الصيحات. وصار عمر الأنماط والأدوات والصيحات الاجتماعية أقصر من ذي قبل، مما أجبر الأفراد على خوض غمار دورة مرهقة من التغير المتواصل. وتفيض مكبات النفايات بمنتجات استخدمت بالكاد، وتعاني البيئة من النفايات المتزايدة وانهارت الأُسر في ظل مستويات قياسية من الديون. وتفاقمت المشكلة بسبب النموذج الشهير "الشراء الآن والدفع لاحقًا"، مما استدرج الأفراد إلى الوقوع في معاناة مالية على المدى الطويل مقابل رضا مؤقت. ووجد المسلمون أنفسهم عالقين في هذا السباق، وواجه بعضهم مُعضلة إضافية تمثلت في الانحراف عن القِيم الدينية.

"يكسب التجار الذين يوفرون خدمات الشراء الآن والدفع لاحقًا المال من الرسوم التجارية (تتراوح عادة بين 2-6 في المائة) ورسوم "تأخر" العميل. ويتكبد هذه الغرامات واحد من بين خمسة مستخدمين لخدمات الشراء الآن والدفع لاحقًا". (ثريدغولد وآخرون، 2024، قسم "خدمات الشراء الآن والدفع لاحقًا والشباب")

تسببت وسائل التواصل الاجتماعي في تفاقم هذه الأزمة. فالمنصَّات تُكافئ صُنَّاع المحتوى سريعًا، ويُحفِّز المؤثرون للترويج لكل منتج جديد باعتباره "الأفضل". وما يبدأ كترفيه سرعان ما يتحول إلى مادة تسويقية جذابة تقنع المشاهدين بأن المنتجات التي طالما اعتبرت غير ضرورية صارت الآن "لا غنى عنها". وتحوُّل هذه الرسائل الخفية الرغبات إلى احتياجات وتربط القِيمة الذاتية للفرد بالممتلكات. وبالنسبة للمسلمين، تبعدهم هذه الشهوة عن الاستقرار الروحي والقناعة وتُعظم مشاعر السخط والمنازعة.

وتترتب على هذا القصف المتواصل منافسة خطيرة. فالأفراد يقارنون حياتهم لا شعوريًا مع الآخرين، والمجتمعات التي طالما عاشت على الوحدة تصدَّعت الآن في ظل صراعات صامتة. وبدلاً من دعم بعضهم البعض، قد يجد الأفراد أنفسهم في سباق للتباهي بمن هو أكثر رُقيًا أو حداثة أو ملاءم اجتماعيًا، الأمر الذي يُضعف روح التعاطف والتسامح والتكافل التي يعلمها الإسلام. وفي الواقع، صار سباق مواكبة الصيحات يستنزف الناس ماليًا وروحانيًا.

أوهام القناعة في عالم غارق في النزعة الاستهلاكية

في ظل عدم قدرتهم على مواجهة الشعور بالذنب، يلتمس الكثير من المسلمين الراحة في المقايضات والخصومات وأحدث الصيحات. ومن خلال إنفاق مبلغ أقل على المنتج، يعتقد الفرد بأنه صار قنوعًا وأنه لم يزل يتماهى مع القِيم الإسلامية، غير أن هذا الأمر وهم خطير. فالقناعة في الإسلام ليست مجرد تخفيض التكاليف؛ بل تعني المراقبة والاعتدال واحترام الموارد. أما تبرير الاستهلاك المفرط من خلال الإشارة إلى الأسعار المنخفضة فيشوه معنى القناعة.

تستلزم القناعة الحقيقية التفكُّر. ولا يحض الإسلام المسلم على التحري عن مقدار ما ينفقه فحسب بل في ما ينفقه وسبب ذلك. ولم يزل شراء عدد لا يحصى من الأصناف بأسعار مخفَّضة هدرًا إن لم يستند إلى غاية حقيقية. ويؤكد القرآن الكريم على التوازن، ويعلم المؤمنين كيفية تفادي التبذير واستثمار المال في دعم الإيمان والأُسرة والمجتمع. ومع ذلك، تشجع الثقافة الاستهلاكية على نقيض هذا، فيتراكم عدد لا نهائي من الأشياء تحت شعار زائف، وهو ادخار الأموال. قال الله تعالى: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا (26) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا (27)". سورة الإسراء (الآيات 26-27).

وإن أمكن للنزعة الاستهلاكية إعادة صياغة فكرة القناعة، يتجلى تأثيرها بشكلٍ أكبر على الفرائض الدينية مثل الزكاة. وتزدهر الأنماط الاستهلاكية على الفكرة التي مفادها أن الكمية تعادل القِيمة. وتغذي المجتمعات هذه الأسواق بشكلٍ متزايد، وتعتقد أنها تمارس ضبط النفس بينما تُساهم دون قصد في الهدر والتبذير. ولا تُعيد النزعة الاستهلاكية تشكيل العادات فحسب، بل تُعيد كذلك تفسير المفاهيم الدينية، وتبعد المسلم عن المراقبة التي يتطلبها الإيمان.

الزكاة: عقبة في طريق العناية بالذات أم اختبار إلهي للإيمان؟

ربما يتجلى المثال الأبرز لتأثير النزعة الاستهلاكية في أثرها على الزكاة. فقد يواجه المسلم صعوبة في تحقيق التوازن مع التزاماته الدينية، ويعتقد في بعض الأحيان أن الانغماس في المُتع مُبرر إن كان يساهم في السعادة الشخصية. ومع ذلك، الزكاة ليست عبئًا يقصد به الحرمان؛ بل أمر إلهي لتطهير الأموال ودعم المجتمعات واستعادة التوازن.

لا تحرم الزكاة المتعة الذاتية. بل تضعها في إطار المسؤولية. ومن خلال تكليف المسلم بمَنح نسبة من ماله للفقير، يعلمنا الإسلام أن المال ليس ملكية مطلقة بل أمانة من اللّه، ويتحمل كل امرئ مؤمن المسؤولية عن استخدامه. ومن خلال هذا الفعل، توزع النعم للإعلاء من شأن الآخرين ومكافحة عدم المساواة وتعزيز التضامن بما يتوافق مع رؤية الأمة الواحدة. وعلى النقيض، يمكن للثقافة الاستهلاكية إفساد الأولويات، فيتراجع ما كان يُعد ركيزة أساسية للإيمان ليصبح أمرًا اختياريًا أو تابعًا للراحة الشخصية، فقد جاء في الحديث الشريف: "ما نقص مال من صدقة" (صحيح البخاري 2588)، وورد أيضًا: "إن اللّه فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم"(صحيح البخاري 1395).

الخاتمة

شكّل صعود النزعة الاستهلاكية تحديًا كبيرًا أمام المجتمعات المسلمة، بعد أن تقدمت الرفاهية والراحة الشخصية على مبادئ الإسلام التي قوامها البساطة والكرم والوحدة. ومع ذلك، فهذا الصراع لا يتعلق بالمال فقط، بل كيف يمكن للمسلم المحافظة على قِيمه الفاضلة في عالم يهيمن عليه الاستهلاك. ولا يعني التحدي الذي يواجه المؤمن في رفض الحياة العصرية بالكلية، بل في الانخراط بها بروية: بالتمسك بالإيمان والحرص على الوسطية وضمان ألا يحل المال والممتلكات والصيحات محل القِيم الأعمق التي قوامها العرفان والتكافل والتوازن الروحي على الإطلاق.